أغراض المدح في الشعر المملوكي

طالب الدكتوراه أصغر رحيمي
قسم اللغة العربية وآدابها ـ جامعة آزاد الإسلامية آبادان ـ إيران
asgharrahimi537@gmail.com
الدّكتور عبدالرّضا عطاشي
الأستاذ المشارك ـ قسم اللغة العربية وآدابها ـ جامعة آزاد الإسلامية آبادان ـ إيران
abdolrezaattashi2014@gmail.com
الدّكتور عبدالكريم آلبوغبيش
الأستاذ المساعد ـ قسم اللغة العربية وآدابها ـ جامعة آزاد الإسلامية آبادان ـ إيران
Dr.kerim.5151.Gmail.com

Praise purposes in Mamluk poetry

PhD student Asghar Rahimi PhD student
Department of Arabic Language and Literature - Islamic Azad University Abadan - Iran
Dr. Abd Al-Ridha Atashi
Associate Professor - Department of Arabic Language and Literature - Islamic Azad University Abadan - Iran
Dr. Abdul-Karim Al-Abu Ghubaysh
Assistant Professor - Department of Arabic Language and Literature - Islamic Azad University, Abadan - Iran

الملخص:-

المحاولة في هذا البحث هي الكشف عن الأغراض التي من أجلها كان الشعراءُ في العصر المملوكي يستخدمون مدحهم الشعري. ومن خلال البحث تبين أن هناك أغراض عديدة منها دينية كمدح الرسول الأكرم ﷺ ومعارضة البردة و منها من أجل التكسب و استمالة قلوب الأمراء من أجل العطاء أو الإشادة بالانتصارات العسكرية و منها كانت وُدِّيةً. هذه الحوافز وغيرها كانت تسوق الشعراء إلى استخدام هذا الفن الشعري. حاولنا في هذه الدراسة بعد التعريف بالعصر المملوكي و الشعر المديح أن نبين الأغراض التي كانت تحدو بالشعراء لاستخدام هذا الفن الشعري من أجل ذلك انتخبنا بعض الشعراء المشهورين والمتولعين بالمدح منهم صفي الدين الحلي، ابن نباتة المصري، العزازي، القاسم بن علي، علي بن عقبة، سليمان النبهاني، ابن حجة الحموي، ابن دقيق العيد. من خلال البحث وجدنا أن للمدح في تلك الحقبة صبغة دينية كمدح النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته و كذلك مدح الأمراء والأصدقاء ومدح الذات أيضاً.

الكلمات المفتاحية: إغراض، المدح، عصر المماليك، مدح الذات، مدح الغير.

Abstract:-

The attempt in this research is to reveal the purposes for which poets in the Mamluki era used their poetic praise. The research shows that there are many purposes, including religion, such as the praise of the Holy Prophet (PBUH) and the opposition of the Purdue, in order to win and win the hearts of the princes in order to give or praise military victories, These and other incentives were marketed by poets to the use of poetic art. In this study, following the definition of the Mamluk era and the poetry of the Prophet, we tried to explain the purposes that were used to poets to use this poetic art. For this reason, we have elected some famous poets and worshipers such as Safi al-Din al-Hali, Ibn Nabatah al-Masri, al-Azazi, al-Qasim ibn 'A'ari,' Ali ibn 'Aqba, Sulaiman al-Nabhani, Ibn Hajjat al-Hamawi and Ibn Daqeeq al-'Eid. Through the research, we find that the preachers in the era of religious faith, such as the praise of the Prophet (PBUH) and the people of his house, and also praise the princes and friends and praise the self as well.

Keywords: purposes, praise, the Mamluk era, self-praise, praise of others.

المقدمة:

عصر المماليك الذي يعتبر من سنة ٦٤٨ - ٩٢٣هـ كان مليئاً بالأحداث الجسيمة والتطورات الأدبية المتنوعة وقد برع شعراء تلك الحقبة في أنواع الفنون الشعرية منها المدح بأنواعه المتعددة وكانت له أغراض شتّي.

يعتبر شعر المدح باب من أبواب الشعر العربي الواسعة، ويشمل عدّة أفرُع منها: مدح الذات، ومدح الآخر، وهو من أشهر الأغراض التي نظم فيها الشعراء في العصر القديم والحديث، وسنتعرّف في هذا المقال على مفهومه لغةً واصطلاحاً، وعلى بعض شعرائه، ومراحل نشأته في عصر المماليك. وإن تفاوتت فيه عناصر القوة والضعف، وقد سَجَّل لنا مدح الشعراء في عصر المماليك، الإشادة بالشجاعة و الكرم و الفضل و العطاء و كذلك بطولات بعض الأمراء و المجاهدين في مقاومتهم للصليبيين والتتار والمغول. و المدح له مدلولات ومصاديق متفاوتة يقول سَلُّوم: ((إنَّ الشعر كُلُّه مدح، فإذا مدح الشاعر النساء والفتيات يكون غرضه غزلاً و إذا مدح الشاعر الميت نسمي هذا الغرض رثاء و إذا مدح الشاعر نفسه فهذا الغرض يسمى فخراً و إذا مدح الأشياء الجامدة يسمى هذا الغرض وصفاً و إذا مدح الأشخاص الأحياء نسمي هذا الغرض مديحاً (سلوم، ٢٠١٣، ص٢).

١- مفهوم المدح و تعريفه

أ - المدح لغةً:

جاء تعريف المدح في كتب اللغة: مدح: المَدْح: نقيض الهجاءِ و هو حُسْنُ الثناءِ يقال: مَدَحْتُه مِدْحَةً واحدة و مَدَحَه يَمْدَحُه مَدْحاً و مِدْحَةً، هذا قول بعضهم، و الصحيح أن المَدْحَ المصدر، و المِدْحَةَ الاسم، و الجمع مِدَحٌ، و هو المَدِيحُ و الجمع المَدائحُ و الأَماديحُ. (ابن منظور، ١٤١٥، ج٢، ص ٥٨٩). قال أبو ذؤيب:

لو كانَ مِدْحَةُ حَيٍّ مُنْشِراً أَحداً، أَحْيا أَباكُنَّ، يا لَيْلى، الأَمادِيحُ

(ابوذؤيب الهذلي، ٢٠٠٣، ٤٣)

والمدح: الثناء الحسن. و مدحه و امتدحه بمعنى، وكذا المدحة بكسر الميم. و مدحته من باب نفع: أثنيت عليه بما فيه من الصفات الجميلة خلقية كانت أو اختياريه، و لهذا كان المدح

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

أعم من الحمد(طريحي، ١٤١٢، ج٢، ص ٤١١). نعني بالمدائح جمع مديح من الشعر، والذي مُدِحَ به كالمدحة والأمدوحة، ورجل مادحٌ من قوم مُدّح، ومديح، وممدوح.

ب: المدح اصطلاحاً:

هو تعداد لجميل المزايا والخِصال، ووصفٌ للشمائل الكريمة، وإظهارٌ للتقدير العظيم الذي يحمله الشاعر لَمنْ توفرت فيه تلك الصفات. (عبد النور، ١٩٨٤، ص ٢٤٥).

يعتبر المدح من الأغراض الشعريّة الرئيسية التي تناولتها القصيدة العربيّة، ثمّ يتفرع كلّ غرض إلى فروع، فيكون من المدح مثلاً: المراثي والفخر، والشكر، واللطف واللين في المسألة. المدح في الشعر العربي تطوّر المدح منذ نشأة الشعر العربي، فقد كان من أهمّ الموضوعات التي تتطرق لها القصيدة، حيثُ أصبح فناً قائماً بذاته بصفته غرضاً من أغراضها، فرغبة الشاعر في إظهار إعجابه بممدوحه تدفعه إلى إتقان هذا الفن من الكلام، حيثُ يسعى إلى نظم الشعر الذي يتضمن الثناء والشكر. و وصلت هذه الحالة إلى الشعر في عصر المماليك.

٢ـ المدح الديني

عندما نتصفح الدواوين الشعرية في العصر المملوكي نجد المدح له صبغة دينية، و ذلك إما لمدح الرسول الأكرم ﷺ و كان ذلك علي منهج البردة و إما لمدح رجال الدين و الأولياء الصالحين من أمثال إمام علي عليه السلام.

يقول ابن دقيق العيد في ذكر مبعث الرسول الأكرم ﷺ مادحاً

بَعثُــــهُ بَعــثُ كـــلِّ خَــيرٍو مــــيلا	دُ الهُــــدَي و التقـــي مَعَــــاً مــــيلادُهُ
فالمعــــــالي لذاتِــــهِ وَ علــــومُ	الغيــــبِ لذاتِـــهِ وَ مِنـــها مِـــدادُهُ

(فرّوخ، ١٩٨٦، ج ٣، ص ٦٩٦)

وأما في مجال معارضة البردة فإنّ الكثير من شعراء في تلك الحقبة عمدوا لإظهار مقدرتهم الشعرية. فنهجوا ذلك المنهج. علي سبيل المثال نجد ذلك في ديوان شهاب الدين العزازي و من شعراء العصر المملوكي، يجيد نظم الشعر والموشحات. ولد عام ٦٣٣ هـ، في بلدة أعزاز، وتوفي في محرم، (٧١٠هـ) بالقاهرة قال عنه صلاح الدين الصفدي: (كان مطبوعاً

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

ظريفاً جيد النظم في الشعر والموشحات)، ولقبة في توشيع التوشيح بـ: (الأديب الوشاح).

وَيــا نَسِــيمَ الصــبا كــرِّر عَلَــي أذني   حَــديثهنَّ فَمَــا التكــرارُ مَملُــولُ

(فرّوخ، ١٩٨٦، ج ٣، ص ٧٠٢)

من خلال سيرة العزازي وشعره يتضح أنه يميل إلى التشيع الذي ربما كان لاتصال نسبه بالحسين بن علي عليه السلام بعض الأثر فيه، وعلى كل حال فإن هذا التشيع لديه إنما هو تشيع هوى لا عقيدة، إذ كا يطري آل البيت، ويتفجع لمصابهم، ويعزي الأمة بهم، ويشيد بأخلاقهم ومكارمهم، وهذا أمر محمود في جملته، وجرى عليه كثير من العلماء والعامة، ويقر به الباقون وإن لم يداوموا على إعلانه، وهو يخالف غلاة الشيعة الذين يتبرؤون من بعض الصحابة -رضوان الله عليهم-، فهو لا يذم أحد منهم، بل يشيد بمن يأتي به السياق، وهاهو يشيد بعدل خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله عمر بن الخطاب في سياق مديح

وأعــادَ فِينَــا سِــيرَةً عُمُرِيّــةً   حَـتى رأينَـا الحـقَّ عَـادَ كمـا بَـدَا

فالعزازي شاعر مديح في المقام الأول، فمعظم شعره منتظم في سلك المديح، ويبدو ان العزازي من خلال شعره وسيرته لم يكن يمدح بقصد التكسب الذي يقوم عليه بعض دخله، فهو تاخر لم تلزمه الحاجة إلى عرض شعره كما يعرض بضاعته، ولكن هذا لاينفي رغبته في الحصول على العطايا من جهة، والفوز بالخطوة لدى الوجهاء من جهرة أخرى هي في زعم الباحثون أجل لديه من الحصول على العطايا.

يشكل المدح القسم الأكبر من ديوان الشاعر العزازي، ويلخص العزازي في مدائحه، ويبذل فيها قصارى جهده الإبداعي، وبخاصة لدى من يقدر مدائحه حق قدرها، ومن مدائحه قوله في السلطان المظفر تقي الدين أبي الفتح محمود بن شاهنشاه: فله قصيدة عنوانها: ((قصيدة: وما عاودته أبغي نداه)) يقول فيها:

وَمَــا عَاودتُــهُ أبغِــي نــداه   وأســألُ رفــدَهُ إلى بــدانِي

فكــم أغلــى مهــور بنــات فكــري   وأعلــى في الكرامــة مــن مكــانِي

أبــا الفــتح اســتمعها مِــن ولي   بــذكرك لم يَــزَل رطــبَ اللســان

منقحــة تميــل بكــل عطــف   كمــا مالــت بــه بنــت الــدنان

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

إذا وشـــي المـــدائحَ فيـــك فِكــرِي فَـــلا تســـتطرف الوشـــيَ اليمـــانِي

(العزازي، ١٩٩٨، ص ٣١١)

ونرى ابن حجة الحموي يمدح رسول الله و هو إمام أهل الأدب في عصره. وكان شاعرا جيد الإنشاء. من أهل حماة(بسورية) ولد ونشأ ومات فيها. زار القاهرة والتقى بعلمائها واتصل بملوكها. وكان طويل النفس في النظم والنثر، حسن الأخلاق والمروءة، فيه شيء من الزهو والإعجاب. اتخذ عمل الحرير وعقد الأزرار صناعة له، في صباه، فنسب إليها.

محمـــد بـــن الـــذبيحين الأمـــين ابـــو البتـــول خـــيرنـــبي في اطـــرادهمِ

أبـــدي البـــديع لـــه الوصـــف البـــديع وفي نظـم البـديع حـلا ترديـده بفمـي

كــرَّرتُ مَــدحي حَــلا في الزائــد الكــرم ابــنِ الزائــد الكــرمِ بــنِ الزائــد الكــرمِ

(فرّوخ، ١٩٨٦، ج ٣، ص ٨٤٣)

القصد من الذبيحين هما اسماعيل بن إبراهيم و عبدالله والد الرسول الأكرم ﷺ وكررت: أي رددت.

٣- مدح الإمام علي عليه السلام

نجد في تلك الفتر بعض الشعراء بما لديهم من الحي الروحية والإيمانية أخذوا يمجدون برجال الدين والإمام علي عليه السلام خاصة ويتطقون إلى خلافته ووصية الرسول الأكرم ﷺ بحقه. فلذا الشيخ صفي الدين عبد العزيز بن السرايا الحلي: كان عالما، فاضلاً، شاعراً، أديباً، منشئا، من تلامذة المحقق نجم الدين جعفر بن الحسن الحلي، له القصيدة البديعة مائة وخمسة وأربعون بيتا تشتمل على مائة وخمسين نوعا من أنواع البديع، وله شرحها وديوان شعر كبير، وديوان صغير، وله قصائد محبوكات الطرفين جيدة ثمان وعشر ونبيتا. وله مدائح كثيرة في أهل البيت عليهم السلام ، منها قوله في مدح الامام علي عليه السلام:

فَوَاللَــهِ مَــا اِختــارَ الإِلَــهُ مُحَمَّـــداً حَبيبــاً وَبَــينَ العــالَمينَ لَــهُ مِثــلُ

كَــذَلِكَ مَــا اِختــارَ النَبِــيُّ لِنَفسِــهِ عَلِيّــاً وَصِــيّاً وَهــوَ لِابنَتِــهِ بَعــلُ

وَصَــيَّرَهُ دونَ الأَنــامِ أَخــاً لَــهُ وَصِـنواً وَفـيهِم مَـن لَـهُ دونَـهُ الفَضـلُ

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

وَشـاهِدُ عَقـلِ المَـرءِ حُسـنُ اِختِيـارِهِ فَمـا حـالُ مَـن يَختـارُهُ اللَـهُ وَالرُسـلُ

٤ـ مدح الأمراء

تولَع الكثير من شعراء عصر المماليك بتمجيد و مدح الأمراء، لأنهم كانوا في ذلك الوقت يدافعون عن بيضة الإسلام؛ لأنَّ الاجتياح المغولي كاد أن يقضي علي الأمة الإسلامية و حضارتها.

فنجد سليمان النبهاني العماني وهو ملك و شاعر، من بني نبهان (ملوك عُمان)، يمدح الأمير و القائد المغوار في قصيدة عنوانها: ((نَعم ساوَرَ الهمُّ الفؤاد فأبْهَرا)) وقد خرج على الإمام أبي الحسن بن عبد السلام النزوي. واستولى على عُمان (بعد ذهاب دولة آبائه النبهانيين) وحكمها مدة وخلفه بإمامة أهل عُمان محمد بن إسماعيل. وكان شاعراً حماسياً مجيداً فيقول في مدحه:

سـليلُ ملـوكٍ مـن عَـرانينِ يَعـربٍ بهـا ليـلَ كسـرى قـد أذَلُّـوا وقيصـرا
هـو المُـنزلُ الأعـداءِ مـن بعـدِ عـزِّهم منـازلَ لا يرضـى بهـا الضَّـبُ مَجحـرا
هـو المُلْـبِسُ الليـثَ المُهـابُ زَئـيره نسـيجين مـن ذلٍّ رداءً ومِئـزرا
هـو القائـدُ الجُـرد الخَناذيـذَ للعِـدَى قواحـل شُـعثاً كالسَّـراحين ضَّـمرا
صَـدوعٌ بعـزمٍ ثاقـبٍ وبهّمـةٍ ورأيٍ يُريـهُ مُضْـمَرَ الغيـبِ مُظهَـرا
ألم تـرَ أن اللّهَ أعطـاهُ سـورةً وعـزاً علـى كـل الملـوك مُـؤَزَّرَا
نمـاهُ إلى العليـاءِ عمـرٌ وعـامرٌ فبـوركَ عيصـاً لا يُشَـابُ ومَفْخَـرا
أولئـكَ أربـابُ الخلافـةِ والعُلـى وأشـرفُ مـن قـد حـازَ أمـراً وأمَّـرَا

ونراه في الأبيات التالية يفخر بنفسه و قومه و هذا هو مدح الذات:

فمـن يـكُ عنـا أيهـا النـأُس سَـائلاً فإنـا ملـوكُ النـاسِ مـن آلِ حِمْيَـرا
حَللنـا مَقامـاً تقصُـر الشُّـهبُ دونـه ونرجـو علـى مـا دونـه الشَّـهبُ مظهـرا

وشاعر وأديب نراه يستخدم أسلوب المدح لأحد القادة و الأمراء فط ساحة المعركة، ويقال له ابن قرناص شهرةً لجدِّه الأعلى هبة الله بن علي المعروف بقرناص. مارس الأدب

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

حتّى شبّ شاعرًا مبدعًا، وكاتباً بارعًا. وكان عارفاً بعلوم اللغة العربية وآدابها معرفة جيدة ومتقنة، وأكبّ على دواوين الشعراء الذين سبقوه، ويستوعب ويضمّن شعره من أشعارهم. كان محي الدين بن قرناص موضع إجلال واحترام من لدن أصحاب السلطان في بلاد الشام، وكتب الرسائل الديوانية والأخوانية. وكان يتبادل الرسائل مع كثيرٍ من أصدقائه ومعارفه، أمثال: القاضي تاج الدين بن الأثير، وابن خلّكان، وابن العديم.

يمدح ابن قرناص الممدوح مشبها سقوط رؤوس الأعداء بالبطيخ و قد حززتها سيوف الممدوح فيقول:

حَلَلنا بِميقاةِ الأميرِ وَقَد جَرَي — بِها جُودُ كفيه كوبلِ الغَمائمِ

وَلاحَ بِها البطيخُ و هو كأنَّه — رُؤوس الأعادِي حُزِّزَت بِالصَّوارِمِ

(الصفدي، ١٩٩٩، ٣٦٠)

مبارزَ الدينِيا من جُودُ رَاحته — وَ فَضله في الوَرَييربَي عَلي السُّحبِ

(فرّوخ، ١٩٨٦، ج ٣، ص ٦٣٠)

قال علي بن عقبة يمدح آل جعفر (وهم الذين اضطروه إلى مبارحة بلده) مادحاً وَشاكياً:

أهلُ المكارمِ و الفضائلِ و العُلا — وَمَلاذُ كلِّ مُطرَّدٍ مُنفَّرِ

وَمُلوكُ كندةَ في القديمِ وَ بعدَ مَا — جاءَ البيانُ عَلي لِسان المُنذِرِ

(فروخ، ١٩٨٦، ج ٣، ص ٦٨١)

قال القاسم بن علي يمدح بن هتيمل يمدح أحمد المتوكل الثاني ابن أحمد المتوكل الأول صاحب ظفار من بني سليمان العلويين:

أنا مِن ناظِري عَليك أغارُ — وأرِعني ما حالَ عَنه الخِمارُ

حفظَ اللّهُ أحمدَ حيثما كانَ — وَجادتُهُ دَيمةٌ مِدرارُ

الشريفدالشريف و الجوهر — الجوهرو الخالص النضار النضارُ

(فرّوخ، ١٩٨٦، ج ٣، ص ٦٩٣)

ويبدو أن مديح العزازي ينبع غالباً من قرارة نفسه، وبخاصة تجاه ملوك حماة الأيوبيين، ومهما يكن فـ (سواء أكان المديح نابعاً من قرارة نفس المادح، أم كان وسيلة زلفى إى من شعر أنهم يفوقونه قوة، أو مالاً، أو مزايا خلقية، فهو إقرار بالرياسة والزعامة، واعتراف بالفضل والمكانة).

ومن مدائحه قوله في السلطان الملك المنصور أبي المعالي ناصر الدين محمد:

لا أراني الله في طاعتـــــــــــــــه	ثانيـــــاً عطـــف ثنـــائي أو عصـــيا
ومـــــتى غــــيرت إخلاصـــي لــــه	كنـــت في مـــا أدعـــي منـــه دعيـــا

(العزازي، ١٩٩٨، ص: ٢١٢)

ولعل هذا الانصراف إلى سلاطين حماة معزز بالانتماء الذي يستشعره العزازي تحاه موطنه.

وقد قاربت مدائح العزازي المئة مديحة ما بين قصيدة ومقطعة، ومن هذه المدائح ما كان في الملوك وبخاصة ملوك حماة الأيوبيين، وكذلك كانت للعزازي مدائح في سلاطين المماليك والأمراء والوزراء والقضاة والأعيان.

والذي يتوقف المرء عنده هو غزارة مدحه لملوك حماة الأيوبيين مع أنه كان يقيم في القاهرة، وقد بلغت علاقته بهم حداً لما تبلغه مع أحد، وقلما بلغه شاعر لدى ممدوح، وتظهر القصائد أنه كان على علاقة حميمية تكان تكون ندية بينه وبينهم دون استثناء وعلى رأس هؤلاء الملك المنصور والملك المظفر ابنه.

على إثر هذه التقلبات السياسية على الصعيد الخارجي كان العزازي حاضراً بشعره لتسجيل كثير من المعارك الحربية التي خاضتها دولة المماليك ضد التتار والصليبيين، إذ كان يمدح الملوك والولاة، وذكر انتصاراتهم، وكسر شوكة الأعداء، ومن ذلك مدحه للملك سيف الدين قلاوون، وإشادته بأحد انتصاراته، يقول:

فتحـــت الـــتي أعيـــا الملـــوك افتتاحهـــا	ولم يغنـــــها عصـــــيانها وجماحهـــــا
طـــرابلس لـــولاك طـــال امتناعهـــا	وأعضـــل منــــها حربهـــا وكفاحهـــا

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

ولـــو لم تحاربهـــا لحاربهـــا القضـــا وأخـــنى عليهـــا ليلـــها وصـــباحها

ولمـــا طغـــت أعلاجهـــا وكنودهـــا عتـــواً وهـــب بـــالعقوق رياحهـــا

نهضـــت إليهـــا في جحافلـــك الـــتي يحـــوم عليهـــا يمنـــها ونجاحهـــا

(العزازي، ١٩٩٨، ص: ١٤٧)

ومثل هذا كثير في شعر العزازي، حتى إنه لم يجد الباحثون قدراً كبيراً من المدائح التي ارتبطت بانتصارات السلاطين والولاة وفتوحاتهم، وقد تنوعت هذه المدائح بتنوع انتصارات الممدوحين، ولعه بهذا فاق سابقيه من الشعراء الذين كانوا يرتبطون بعدد أقل من الملوك.

ولاهتمام امتداد العصر الأيوبي إلى العصر المملوكي بالحركة العلمية والفكري حيث تنافس سلاطين المماليك في إنشاء المدارس والمكتبات، وبناء المساجد، وتشجيع أهل العلم، وإجزال العطاء للكتاب والمؤلفين ورعياة طلاب العلم، أثره البالغ في تكون رؤية العزازي التراثية والثقافية، إذ إنه كان يميل إلى التبحر في التراث، والاستزادة منه قدر المستطاع، وهذا الأمر ظاهر في شعره، فالمطلع عليه يجده زاخراً بالتراث على المستويين المضموني والفني.

مدح صفي الدين السلطان الناصر قلاوون بقصيدة وازي بها قصيدة المتنبي في كافور: بأبي الشموس الجانحات غواربا)) من خلال هذا العرض ينوه الشاعر إلى محامد الممدوح السلطان ناصر القلاون:

فَمَواهِـبُ السُـلطانِ قَـد كَسَـتِ الـوَرى نِعَمـــاً وَتَـــدعوهُ القَســـاوِرُ ســـالِبا

الناصِـرُ المَلِـكُ الَّـذي خَضَـعَت لَـهُ صـــيدُ المُلـــوكِ مَشـــارِقاً وَمَغارِبـــا

إن هذا الملك الراحة في اكتساب المكارم والقعود عن القتال يراها متعابالهو بتلك المكارم يجعل البر بحرا:

مَلِـكٌ يَـرى تَعَـبَ المَكـارِمِ راحَـةً وَيَعُـدُّ راحـاتِ الفِـراغِ مَتاعِبـا

بِمَكـارِمَ تَـذَرُ السَباسِـبَ أَبحُـراً وَعَـزائِمٍ تَـذَرُ البِحـارَ وَمُحارِبـا

الجميع يمدح السلطان لأن عطاياه عمت الجميع وإن لم يكن هناك ذكر للسلطان فتكون رماحا وسيوفا:

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

لَـم تَخـلُ أَرضٌ مِـن ثَنـاهُ وَإِن خَلَـت ... مِـن ذِكـرِهِ مُلِئَـت قَنـاً وَقَواضِـبا
تُرجـى مَواهِبُـهُ وَيُرهَـبُ بَطشُـهُ ... مِثـلَ الزَمـانِ مُسـالِماً وَمُحارِبـا

فَـإِذا سَـطا مَلَـأَ القُلـوبَ مَهابَـةً ... وَإِذا سَـخا مَلَـأَ العُيـونَ مَواهِبـا
كَالغَيـثِ يَبعَـثُ مِـن عَطـاهُ وابِـلاً ... سَـبطاً وَيُرسِـلُ مِـن سَـطاهُ حاصِبـا

يشير الشاعر إلى بطولات الممدوح ويثبت لها صفات الأسد الشسو الوثاب ثم يشبه الممدوح بالسيف البراق مظهر او البتار في ساحة الوغى:

كَاللَيـثِ يَحمـي غابَـهُ بِـزَئيرِهِ ... طَـوراً وَيُنشِـبُ في القَنـيصِ مَخالِبـا
كَالسَـيفِ يُبـدي لِلنَـواظِرِ مَنظَـراً ... طَلقـاً وَيُمضـي في الهَيـاجِ مَضـارِبا

ثم يشبه ممدوحه بالسيل الجارف الذي يخلف الماء العذب فهو ممدوح من جهة الخير والعطاء وبغيض للأعداء وهو كالبحر في العطايا والمنظر العجيب:

كَالسَـيلِ يُحمَـدُ مِنـهُ عَـذباً واصِـلاً ... وَيَعُـدُّهُ قَـومٌ عَـذاباً واصِـبا
كَـالبَحرِ يُهـدي لِلنُفـوسِ نَفائِسـاً ... مِنـهُ وَيُبـدي لِلعُيـونِ عَجائِبـا

فينوه الشاعر إلى عطايا الملك الجزيلة والمفاخر التي كسبها من وراء ذلك وأورثها لبني قلاون:

فَـإِذا نَظَـرتَ نَـدى يَدَيـهِ رَأَيـهُ ... لَـم تُلـفِ إِلّـا صـائِباً أَو صـائِبا
أَبقـى قَـلاونُ الفَخـارَ لِوُلـدِهِ ... إِرثـاً وَفـازوا بِالثَنـاءِ مَكاسِـبا

(فرّوخ، ١٩٨٦،ج ٣، ص ٧٧٣)

ابن نباتة المصري شاعر عصره، وأحد الكتاب المترسلين العلماء بالأدب، أصله من ميافارقين، ومولده ووفاته في القاهرة.

وهو من ذرية الخطيب عبد الرحيم بن محمد بن نباتة. سكن الشام سنة ٧١٥هـ وولي نظارة القمامة بالقدس أيام زيارة النصارى لها فكان يتوجه فيباشر ذلك ويعود. ورجع إلى القاهرة سنة ٧٦١ هـ فكان بها صاحب سر السلطان الناصر حسن.

قال ابن نباتة يمدح الملك المؤيد أبي الفداء:

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

لـــولا مَعـــاني الســحر مـــن لحاظتـــها ... مـــا طـــال تـــردادي علـــي أبياتهـــا
ســـقياً لروضـــاتِ الشـــباب وإن جنـــت ... هـــذي الشـــجونُ علـــى قلـــوبِ جُناتهـــا
ولدولــــــةِ الملـــــكِ المؤيـــــدِ إنَّهــــا ... جمعـــت فنـــونَ المـــدحِ بعـــدَ شـــتاتها
ملـــكٌ ليمنـــــاه عوائـــــدُ أنعُـــمٍ ... ألفـــتْ نحـــاةُ الجـــود فـــيضَ صِـــلاتها
مـــا قـــال إلاَّ في مبـــادرَة العطــــا ... وتنـــاولِ الأمـــداح هـــاكَ وهاتهـــا
شـــدَّت لســـاحته الرحـــالُ ففعلـــها ... يقضـــي بنصـــرِ الحـــرف نحـــوَ جهاتهـــا
أكـــرِم بســـاحتِه الـــتي لا صَـــدْحَ ... مـــن وُرق الثنـــا إلاَّ علـــى روْضـــاتها
غـــذِيَ الرجـــاءَ نباتُهـــا فـــانْظر لمـــن ... وشَّـــاه مـــن مـــدحٍ فـــمُ ابـــنِ نباتهـــا

(فرّوخ، ١٩٨٦، ج ٣، ص ٧٩٧)

ونجد أحمد بن علوان أبو العباس صفي الدين و هو صوفي يماني متأدب من قرية يفرس (كيفرك) من ضواحي مدينة تعز يمدح الرسول الأكرم ﷺ و الصحابة و من ثم يتطرق إلى مدح الذات قائلاً:

تَشـــدو وَتنشـــد مـــن قـــرائح لبـــها ... مـــدحاً بســـيدها وكـــل مناهـــا
ذاكَ الرَســـول أَبـــو البتـــول بـــذكره ... تحيـــا القلـــوب وَتشـــتَفي مرضـــاها
أَكـــرم بـــه وَبآلـــه وَبصـــحبه ... وَالتـــابعين لهـــم ومـــن والاهـــا
أَحبابنـــا الـــنزال في أَبياتنـــا ... وَريـــاض بلـــدتنا وَصـــيف حَياهـــا

محمد بن حمير الهمداني. شاعر اليمن في عصره، لزم الملك المظفر (صاحب اليمن)، حتى كان شاعره. وله فيه مدائح:

يمـــي البـــارق الـــنّميري تلقـــي ... وَمَضَـــه يَسْـــحَبُ الســـحابَ الهطـــولا
وأقصـــدي قأيَـــد الجيـــوش فعيســـى ... جـــودُه طَبَّـــقَ الـــبلادَ سُـــيولا

ونظم الفقيه شهاب الدين بن حجر العسقلاني، قصيدة يمدح بها الخليفة المستعين العباسي من خلفاء مصر جاء فيها:

المُلـــكُ أَصـــبَحَ ثابـــتَ الآســـاسِ ... بِالمُســـتَعين العـــادِلِ العَبّـــاسِ
رَجعَـــت مَكانَـــةُ آل عـــمّ المُصـــطَفى ... لمحلّهـــا مِـــن بعـــدِ طـــول تنـــاسِ

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

ينوه الشاعر من خلال مدحه إلى طيب العرق والنسب الصالح لدى الممدوح:

فـــرعٌ نمـــا مــــن هاشِـــم في روضـــةٍ — زاكــــي المنابــــتِ طيّـــب الأَغــــراسِ
كَـــم نعِمَـــة لِلَّـــهِ كائَـــت عنـــده — وَكأَنَّهـــــا في غربـــــة وَتنـــــاسِ
مـــا زالَ سِـــرُّ الشَـــرِّ بَـــينَ ضـــلوعهِ — كالنـــــار أَو صـــــحبَتهُ للأَرمـــــاسِ

ارماس: جمع رمس و هو القبر (سليم، ١٩٦٢، ٨: ١١٠)

لقد مدح الشعراء الملك الأشرف خليل بن قلاوون من خلال وصفهم للديوان التي بناه الملك و قد فاق بغية الأبنية و صور فيه الأمراء و نفسه و القادة، فوصفه ابن دانيال، مفضلا إياه علي إيوان كسري و علي إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد و رأي أن التصاوير تضفي علي الإيوان جواً من المهابة حتى غياب صاحبه يقول:

مـــا كـــانَ مثلَـــكَ في الإســـلامِ سُـــلطانُ — ولا لكســـرى كـــذا الإيـــوانُ إيـــوانُ
ذاتُ العمـــادِ تبـــدَّت في جَوانبـــهِ — بَـــلْ جَنّـــةُ الخُلْـــد والبّـــوابُ رضـــوانُ
إنْ غبـــتَ عنـــهُ فشـــخصٌ منـــكَ يمـــلأُهُ — مهابـــةً يتّقيهـــا الإنـــسُ والجـــانُ
صـــوَّرتَ جَيْشَـــكَ فيـــهِ مثـــلَ عادَتـــهِ — كـــأنّهم في ظهـــورِ الخيـــلِ ســـكانُ
وأنـــتَ يـــا أَشـــرفَ الأَمـــلاك شمـــسُ عُـــلا — شـــهابهُا وعلـــى ظَنّـــي سُـــلَيْمانُ

(الصفدي، ١٩٩٧، ص١٤٤)

و في مقطوعة يتحدث فيها الشاعر عن المنزل حديث المحب، فيبعث فيه الحياة و يجعله يحس بما يحس به، و يشعر بما يشعر به من ذلك مقطوعة للعزازي يصف فيها داراً انتقل إليها ممدوحه، فيجعلها مشرقة الوجه منبسطة الأسارير لساكنها الجديد، أما الدار التي فارقها فحزينة، أضناها الشوق إليه، أما الممدوح فسعيد في الدارين يراه الشاعر، و في ذلك تورية لطيفة، فيقول:

إنَّ للـــــدار الـــــتي اســــتوطنتها — بســـــنا وجهـــــك إقبـــــال جديـــــد
وعلـــــي الـــــدار الـــــتي فارقتـــــها — أســـــف في طيـــــه شـــــوق شـــــديد
و أري كـــــلَّ لســـــان قــــــائلا — أنـــــت في الــــــدارين والله ســـــعيد

(العزازي، ١٩٩٨، ١٦٣)

٥ـ مدائح ودية

نجد بعض المدائح في تلك الحقبة لها طابه ودي و ذلك يكون بين التلميذ و أستاذه كما حدث ذلك بين القادرط و جلال الدين السيوطي. وشمس الدين القادري محمد بن أبي بكر ولد في دنجية قرب دمياط (السخاوي،١٩٩٨، ج٧، ص ١٨٨)برع شمس الدين القادري في عدد من فنون الأدب وله نظم و نثر. وشعره عادي نمتزج فيه المتانة من تقليد فحول الشعراء بالضعف و تتفق له المعاني الحسان و علي شعره نفحة دينية. يقول شمس الدين القادري في مدحه لجلال الدين السيوطي:

كأن بفيها من سنا العلم جوهراً جلاه ((جلال الدين)) فهو منضّدُ
إمام اجتهاد عالم العصر عامل بجامع فضل ناسك متهجد
و مجتهد قد طال في العلم مدركاً و باعاً، ففي كل العلم له يد
و قد جاد صيب العلم روضة أصله فطاب له بالعلم فرع و محتد
فلو أبصر الكفار في العلم درسه وقد شاهدوا تقريره لتشهدوا

(فرّوخ، ١٩٨٦،ج ٣، ص ٨٩٤)

المتهجد: الذي يقوم في الليل للعبادة. صيب: انصباب المطر و سقوطه. الفرع: نسل الرجل. المحتد: الأصل النبيل. طاب له في العلم فرع: أي تلاميذه ومحتد: شيوخه، آساتذته(عمر فروخ، ج٣،ص ٨٩٤).

وشاعر آخر و هو أحمد بن الفرفور الدمشقي قصيدة له يمدح فيها قانصوه الغوري:

لكالملك بالفتح المبين مُخلد لأنك بالنصر العزيز مؤيدُ
وكان لك الله المهيمن حافظاً يعينك في كل الأمور و يسعد

(فرّوخ، ١٩٨٦،ج ٣، ص٩١٥)

وقال محمد بن عمر بن بحرق يمدح تلميذه أحمد بن أبي بكر بن عبد الله العيدوس

إذا سامني الدهر ضيماً و لم أجد لي علي الدهر من يسعد
فبيني و بين بلوغ المنى ندائي بالصوت: يا أحمد

(فرّوخ، ١٩٨٦، ج ٣، ص٩٣٣)

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

٦ـ الإمتعاض من التكسب بالمدح:

قال أبو الحسين الجزار المصري بعد أن انتقل من القصابة (بيع اللحم) إلى التكسب بالمديح فلم ينل فيه حظاً:

لا تَعـــــبني بصـــــنعة القصـــــاب، فهـــي أزكـــي مـــن عنـــبر الآدابِ

كـــان فضـــلي علـــي الكـــلاب، فَمُـــذ صِـــرتُ أديبـــاً رجـــوتُ فضـــلَ الكـــلابِ

(فروخ، ١٩٩٧، ج٣، ص ٦٤٤)

نتائج البحث:

بعد التحري في كتب الأدب و دواوين الشعراء لمعالجة موضوع ((أغراض المدح في الشعر المملوكي)) وصلنا إلى نتائج مرجوة و مفيدة و هي:

إنَّ عصر المماليك بطابعه ما كان يختلف عن العصور الأدبية السابقة فكانت جميع الأغراض الشعرية تُعالج من قبل الشعراء

كان للمدح في هذه الحقبة أغراض عديدة منها دينية و منها دنوية كمدح الرسول الأكرم ﷺ و معارضة البردة و مدح أهل البيت (عليهم السلام) و مدح الأمراء و مدح الذات القريب بالفخر.

إهتمّ الشعراء بمدح الأمراء والقوّاد و كانوا من خلال مدحهم يحثّون علي الجهاد و تطهير الاراضي من غزو التتر.

كان المدح لديهم يغلب عليه الأسلوب القديمُ وكان قليل من المدح نحو التكسب و كان البعض يمتعض من التكسب بالمدح.

قائمة المصادر والمراجع

أ: الكتب

١. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت: دار صادر، ١٤١٥ق.
٢. أبو ذؤيب الهذلي، ديوان أبي ذؤيب الهذلي، دبي: الموسوعة الشعرية الاصدار الثالث، ٢٠٠٣م.
٣. الحلي، صفي الدين، ديوان صفي الدين الحلي، تحقيق: عمر فاروق الطباع، بيروت: دار الأرقم، ط١، ١٩٩٧م.
٤. زركلي، خيرالدين. الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.
٥. السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع، لأهل القرن التاسع، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٩٨م.
٦. الصفدي، صلاح الدين، خليل بن بيك، الكشف و التنبيه، تحقيق: هلال ناجي، و وليد بن أحمد الحسين، سلسلة اصدارات الحكمة، ط١: برطانيا ـ ليدز، ١٩٩٩م.
٧. ـــــــ،المختار من شعر ابن دانيال الحكيم، تحقيق محمّد نايف الدّليمي، الطّبعة الأولى، الموصل: مكتبة بسام. ١٩٧٩م.
٨. طريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق: سيد احمد حسيني، تهران: كتاب فروشى مرتضوي، ١٣٧٥ش.
٩. عبد النور، جبور، المعجم الأدبي، بيروت: دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٨٤م.
١٠. العزازي، شهاب الدين، أحمد، ديوان العزازي، دمشق: دار الينابيع، ١٩٩٨م.
١١. فروخ، عمر. تاريخ الأدب العربي، بيروت: دار العلم للملايين،١٩٨٦م.
١٢. القاسم بن علي بن هتيمل دراسة و تحليل لمحمد بن أحمد عيسى العقيلي، الطبعة الأولى، القاهرة: دار الكتاب العربي ١٩٦١م.

ب: رسائل جامعية و مجلات

١. أبو شخدم، ياسين محمد ياسين، شعر الأمير مجير الدين بن تميم، جمع و تحقيق و دراسة، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، ٢٠٠١م.
٢. سلوم درغام سلوم، غرض المديح في الشعر العربي، مجلة كفربو الثقافية، العدد/١٣/ كانون الثاني ٢٠١٣م.
٣. سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، مصر: مكتبه الآداب، ١٩٦٢.

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online